الإنسان والآلة قراءة عقدية في ضوء تحديات الذكاء الاصطناعي

Human and Machine: A Creedal Reading in Light of the Challenges of Artificial Intelligence

م.د.هدى محفوظ محمد بيك العباسي الهاشمي

Dr. Huda Mahfouz Mohammed Bek Al-Abbasi Al-Hashemi

جامعة الموصل / كلية التربية الإنسانية / قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

University of Mosul / College of Education for Humanities / Department of Qur'anic Sciences and Islamic Education

huda65@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية العقيدة الإسلامية , الذكاء الاصطناعي، الخلق ،الإبداع ،الاستخلاف ، المسؤولية الأخلاقية .

الملخص

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة عقدية معاصرة للذكاء الاصطناعي، في ضوء أصول العقيدة الإسلامية. يُبيّن البحث الفرق الجوهري بين الخلق الإلهي الذي يُوجِد من العدم، والاختراع البشري الذي يقتصر على تحويل المواد الموجودة ومحاكاتها. ويؤكد أن الذكاء الاصطناعي مهما تطور يظل أداة محدودة لا تملك روحاً ولا وعياً ولا مسؤولية. ويناقش البحث أبرز الشبهات التي تروج لفكرة محاكاة الخلق أو الوصول إلى وعي اصطناعي، ويرد عليها بالأدلة العقلية والنقلية. كما يوضح أن العلاقة بين الإنسان والآلة ينبغي أن تكون تكاملية، حيث يبقى الإنسان هو المستخلف المسؤول أخلاقياً عن توظيف التقنية في حدود مقاصد الشريعة. ويختتم البحث بتوصيات تؤكد ضرورة التوعية الشرعية والتقنية، ووضع ضوابط أخلاقية لتطبيقات الذكاء الاصطناعي.

Abstract

This paper offers a contemporary doctrinal reading of artificial intelligence through the lens of Islamic creed. It clarifies the essential difference between divine creation—which brings forth existence from nothing—and human invention, which is limited to transforming and simulating pre-existing materials. The study emphasizes that no matter how advanced AI becomes, it remains a finite tool devoid of soul, consciousness, or moral responsibility. It examines key misconceptions such as the possibility of simulating creation or achieving artificial consciousness and refutes them using rational and transmitted evidences. The research argues for an integrative relationship between humans and machines, wherein humans remain the vicegerents morally responsible for using technology within the boundaries of Islamic law. It concludes with recommendations stressing the need for religious and technical education, and the establishment of ethical guidelines for AI applications

المقدمة

الحمد لله الذي رفع من شأن العلم وأعلى من منزلة العقل، وجعل العقيدة الإسلامية قائمة على الوحي الصريح والعقل الصحيح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لقد شهد العالم المعاصر ثورة معرفية وتكنولوجية غير مسبوقة، كان أبرز ملامحها تطور الذكاء الاصطناعي وما صاحبه من تطبيقات تمس جميع جوانب الحياة اليومية للإنسان، وهذا التطور فتح أبوابًا جديدة أمام البحث العلمي، لكنه في الوقت نفسه أثار تساؤلات عميقة ذات صلة بالعقيدة، مثل قضية الخلق والإبداع، وحدود وعي الإنسان، ومكانة الروح، ومفهوم الاستخلاف، إضافة إلى موقع الدين في عالم تتداخل فيه التقنية بالفكر.

ومع أنّ العقيدة الإسلامية تستند إلى أسس ثابتة، إلا أنها تظل قادرة على التعامل مع المستجدات الحديثة، إذ إن مباحثها قائمة على شمولية الوحي، ومرونة العقل، وقدرة الإسلام على استيعاب النوازل الفكرية عبر منهج راسخ يجمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح (التفتازاني، شرح العقائد النسفية، ط1، 1988م، 45)، ومن هنا تبرز أهمية دراسة الذكاء الاصطناعي من منظور عقدي، لأنه لم يعد مجرد مسألة تقنية، بل صار موضوعًا يتصل بقضايا الإيمان والاعتقاد، ويثير أسئلة عن حدود المعرفة البشرية مقارنة بالعلم الإلهي المطلق.

إنّ إشكالية البحث تتمثل في السؤال الرئيس: كيف يمكن للعقيدة الإسلامية أن تفسر وتواجه التحديات التي يثيرها الذكاء الاصطناعي في القضايا العقدية الأساسية؟ ويتفرع عنه أسئلة فرعية: ما الفرق بين الخلق الإلهي والاختراع البشري؟ وهل يمكن أن تمتلك الآلة وعيًا أو روحًا؟ وما حدود استخدام الذكاء الاصطناعي في المجال الديني؟ ثم ما أثره على مفهوم الاستخلاف والتكريم الإنساني؟

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة عقدية معاصرة لمفهوم الذكاء الاصطناعي، من خلال استعراض الإشكالات المطروحة ومناقشتها في ضوء أصول العقيدة الإسلامية، مع بيان قدرة المنهج الأشعري في الرد على الشبهات الفكرية، وإبراز مرونة العقيدة في التعامل مع المستجدات، كما يسعى إلى وضع ضوابط شرعية وعقدية لاستخدام الذكاء الاصطناعي في المجال الديني والفكري، بما يحفظ للإنسان مكانته التي أكرمه الله تعالى بها.

أما المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بجمع المادة العلمية من المصادر الأصيلة في العقيدة الإسلامية، ثم تحليلها وربطها بالقضايا المعاصرة، كما يعتمد المنهج النقدي المقارن عند عرض الشبهات الفكرية ومناقشتها في ضوء العقيدة الصحيحة

(الغزالي ، 1414هـ، 45/1). وبهذا يتضح أن هذا البحث ليس مجرد تناول تقني لمفهوم الذكاء الاصطناعي، بل هو معالجة عقدية تستهدف إبراز تفاعل الإسلام مع قضايا العصر.

واختط البحث في مقدمة وخاتمة ومبحثين ،تضمن المبحث الأول ثلاثة مباحث ،والثاني أربعة مباحث .

المبحث الأول

الخلق والإبداع بين القدرة الإلهية والصنع البشري

قبل أن نخوض في تفاصيل الذكاء الاصطناعي وعلاقته بالإنسان، لا بد أن نتوقف قليلاً عند نقطة أساسية، وهي: من يخلق؟ وماذا يعني الخلق أصلاً؟ في هذا المبحث سنحاول أن نفهم كيف تنظر العقيدة الإسلامية إلى الخلق الإلهي الذي أوجد الوجود من العدم، ونميزه بوضوح عن كل ما يصنعه الإنسان من اختراعات وابتكارات، حتى لو بدت معقدة أو ذكية ، سنرى أن هناك فرقاً ليس في الحجم أو التعقيد فقط، بل في الجوهر نفسه: الله عز وجل يخلق بلا مادة سابقة، والإنسان يُركِّب ويُحوِّل ما هو موجود أصلاً.

كما سنناقش بعض الأفكار التي تروج لفكرة أن الإنسان قد يصبح "خالقاً" بفضل التقنية، ونرد عليها بهدوء وعلمية ؛لأن أي خلط بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق يؤدي إلى تشويه حقيقي للعقيدة، ويفتح الباب لمغالطات خطيرة، هذا المبحث هو بمثابة الأساس الذي ننطلق منه لفهم كل ما يأتي بعده.

المطلب الأول

مفهوم الخلق: حين يكون الإيجاد صفة لله وحده

إذا أردنا أن نفهم الخلق كما ورد في نصوص الوحي وكما استقر في وعي الأمة، علينا أن نبدأ من حيث بدأ العرب: فكلمة "خلق" في لغتهم تحمل معنى التقدير والإيجاد من غير مثال سابق. فالخالق هو من يُنشئ الشيء ويوجده بعد أن لم يكن (ابن منظور، 1414هـ، مادة: خلق). هذا المعنى اللغوي يضعنا أمام حقيقة مهمة: الخلق ليس مجرد ترتيب أو تركيب، بل هو إحداث للوجود من العدم.

وحين ننتقل إلى الاصطلاح الشرعي، نجد أن الخلق هو فعل الله الذي يُحدث به الأشياء، سواء كانت مادية كالسماوات والأرض، أو معنوية كالهداية والقلوب، وهو فعل مقترن بإرادة مطلقة وعلم شامل وقدرة لا تعجزها شيء (القرطبي، 1420هـ، 12/1). والله تعالى يخبرنا في كتابه چک ک ک گ گ چ [الزمر:اية 62]، مما يعني أن كل ما في الكون، من ذرة إلى مجرة، هو من صنعه وإبداعه.

هنا نلمس عمق الفرق بين التصور الإسلامي للخلق والتصورات المادية التي تختزل الخلق في عمليات طبيعية ، فالخلق عندنا ليس مجرد تطور أو تفاعل، بل هو إرادة إلهية أوجدت الوجود من العدم، وهذا يعني أن كل ما يراه الإنسان من إبداع في الكون، هو في حقيقته آيات تدل على خالقه، وليس أدلة على استغناء الكون عنه، ومن هنا نفهم لماذا كان السلف الصالح إذا رأوا شيئاً بديعاً قالوا: "هذا من صنع الله"، أما الإنسان مهما بلغ من العلم والتقنية، فإنه لا يستطيع أن يخلق ذرة من عدم، ولا أن يحيي ميتًا، ولا أن يأتي بحياة من جماد، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما قدرتم على خلق ذرة واحدة" (الترمذي، 1395هـ، حديث رقم 2078). فهذا الحديث يقطع الطريق على كل من يظن أن الإنسان قد يصل إلى مصاف الخالق، بل يبقى الإنسان عاجزًا أمام أقل مخلوقات الله ، وهذا هو الأساس العقدي الذي يحفظ التوازن في الفهم: خالق مطلق، ومخلوق محدود، وأي محاولة للخلط بين المقامين هي انحراف عن صحيح الإيمان.

المطلب الثاني

الإبداع الإلهي والاختراع البشري: فرق لا يزول

عندما نتأمل كلمة "إبداع" في نصوص التراث، نجدها تعني الإيجاد من غير أصل سابق، وبلا واسطة ولا شبيه، فهي صفة تختص بالله وحده، فهو الذي أبدع السماوات والأرض، وأوجد المخلوقات من العدم(ابن منظور، 1414هـ، مادة: أبدع)،وهذا الإبداع الإلهي لا يقاس عليه شيء، لأنه صادر عن إرادة مطلقة وقدرة لا تعرف الحدود.

أما الإنسان فإن ما يقوم به من اختراعات وابتكارات، فإنما هو في دائرة ما هو موجود أصلاً، فهو لا يأتي بشيء من لا شيء، بل يجمع بين مواد موجودة، أو يوظف قوى الطبيعة التي سخّرها الله له، أو يقلد أنماطاً خلقها الله قبله (الفارابي، 1995م، 78)، حتى أعقد الاختراعات، كالذكاء الاصطناعي، هو في النهاية نتاج برمجة بشرية تعتمد على معطيات موجودة، لا يخلق من العدم.

لعل أخطر ما يقع فيه بعض المفكرين المعاصرين هو الخلط بين الإبداع الإلهي والاختراع البشري، فيظنون أن تقدم التقنية قد يصل بالإنسان إلى منزلة الخالق، وهذه مغالطة تفصح عن جهل بحقيقة الخالق وحقيقة المخلوق، فالله سبحانه لا يُعجزّه شيء، والإنسان مهما بلغ لا يخرج عن كونه عبداً محدوداً، حتى عندما ننظر إلى أنظمة الذكاء الاصطناعي، التي تبدو معقدة وذكية، فإننا نجدها تعتمد على معطيات بشرية وموارد طبيعية خلقها الله أولاً وهي لا تملك القدرة على إيجاد شيء من العدم، ولا حتى على إدراك ذاتها(Russell & Norvig, 2021m, 35).

فالفرق إذًا ليس في درجة التعقيد فقط، بل في الجوهر: خالق يخلق من لا شيء، ومخلوق لا يصنع إلا من شيء، ولهذا فإن أي تقنية تبقى في يد الإنسان، والإنسان يبقى في يد خالقه، ومن ينسى هذه الحقيقة يضل سواء السبيل.

المطلب الثالث

الشبهات حول محاكاة الخلق.. لماذا يظن البعض أن الآلة تنافس الخالق؟

مع تسارع تطور الذكاء الاصطناعي، بدأت تظهر أفكار تذهب إلى أن الإنسان قد يقترب من خلق كائنات ذكية، أو حتى وعي صناعي، وهذه الأفكار ليست مجرد تخيلات علمية، بل تحمل في طياتها تصوراً مغلوطاً عن الخلق والإبداع، وتحتاج إلى وقفة عقدية هادئة.

الشبهة الأولى: الذكاء الاصطناعي كبديل للخلق الإلهي:

يرى بعض الباحثين أن الإنسان أصبح قادراً على إنشاء كائنات ذكية تحاكي البشر، بل قد تتجاوزهم في بعض القدرات، مما يعني أن الإنسان بلغ درجة من الخلق لم تكن متاحة من قبل (MIT Technology Review،2024m).

الرد العقدي: هذا الكلام مبني على خلط بين الخلق والتصنيع، فالذكاءالاصطناعي مهما تقدم،هو برمجيات وخوارزميات صممها الإنسان، ويعمل على أجهزة من مواد موجودة في الكون، وهو لا يخلق شيئاً من العدم، ولا يحيي ميتًا، ولا يملك روحًا، قال الإمام الغزالي: "إن القدرة على الإبداع من العدم صفة لا يملكها إلا الله ، وكل ما يفعله الإنسان تقليد أو تعديل لخلق مسبق" (الغزالي، 1414هـ، 45/1).

الشبهة الثانية: الروبوتات والوعي الاصطناعي

يذهب بعض الفلاسفة والمهتمين بالتقنية إلى أن الروبوتات قد تصل يوماً إلى امتلاك وعي يشبه وعي الإنسان، أو إدراك ذاتي، مما يثير سؤالاً: هل يمكن للآلة أن تكون واعية مثل الإنسان؟ (Chalmers، 2023m).

الرد العقدي: الوعي ليس مجرد معالجة معلومات، بل هو سر إلهي مرتبط بالروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام، والآلة مهما بلغ تعقيدها، تبقى جماداً لا روح فيها، قال الإمام الجويني: "الآلة لا يمكن أن تمتلك شعوراً أو إدراكاً ذاتياً؛ فهي محكومة بالبرمجة البشرية" (الجويني، 1411هـ، 112/2). فالفرق بين الإنسان والآلة ليس كميًا بل نوعي: الإنسان له روح وضمير وإرادة حرة، والآلة لا تملك شيئاً من ذلك.

الشبهة الثالثة: محاكاة العمليات البيولوجية

يظن بعض العلماء في مجال البيولوجيا الاصطناعية أن محاكاة عمليات الحياة، كالتكاثر أو النمو، قد تصل إلى خلق حياة جديدة في المختبر (Farahany،2022m).

الرد العقدي: محاكاة العمليات البيولوجية لا تعني خلق الحياة، فالحياة الحقيقية لا تأتي إلا من الله عزَّ وجلَّ، وهي مرتبطة بنفخ الروح، وكل ما يفعله العلماء هو التعامل مع مواد حية خلقها الله أولاً، أو تقليد آليات موجودة أصلاً، قال الإمام الرازي :" أن حقيقة الإلهي تختلف جوهريًا عن أي فعل بشري،مشيرًا الى أن قدرة الإنسان على التصرف في المواد الموجودة لا تعني مطلقًا بلوغ مرتبة الإبداع الإلهي الذي يختص بإحداث الأشياء من غير أصل سابق" (الرازي ، 1420هـ، 12/1)، فمن يعتقد أنه يستطيع خلق حياة جديدة، إنما يضل عن حقيقة قدرة الله وعجزه هو نفسه.

الشبهة الرابعة: الذكاء الاصطناعي وتجاوز حدود الإنسان

يتخيل البعض أن الذكاء الاصطناعي قد يصبح أذكى من الإنسان، بل قد ينتج نفسه بنفسه، فيشبه "خلقاً ذاتياً" مستغنياً عن الإنسان (Moravec،1990m).

الرد العقدي: هذه التصورات تنم عن خيال علمي أكثر مما تنم عن واقع، فالذكاء الاصطناعي لا يملك إرادة ولا قدرة على إنتاج نفسه، لأنه آلة مسخرة، وأساساً فإن الحياة الحقيقية التي فيها إرادة واختيار لا يمكن أن توجد إلا بإذن الله، وقد أخبرنا ربنا أن آدم عليه السلام لم تنفخ فيه الروح إلا بعد أن سواه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وهذا سر إلهي لا يمكن محاكاته بأي تقنية.

بعد عرض هذه الشبهات والرد عليها، يتضح لنا أنّ كثيراً من اللغط حول قدرة الإنسان على محاكاة الخلق ينبع من خلط أساسي بين مفهوم الخلق الإلهي والاختراع البشري، وبين الوعي الإنساني المرتبط بالروح، والمعالجة الآلية المرتبطة بالبرمجة ،والعقيدة الإسلامية تقدم لنا تصوراً واضحاً: الله هو الخالق المبدع من العدم، والإنسان هو المخلوق المستخلف، والآلة مهما تقدمت تبقى أداة محدودة، وأي محاولة للخلط بين هذه المراتب هي انحراف عن صحيح الإيمان، ولهذا فإن تعزيز الوعي العقدي في عصر الذكاء الاصطناعي ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة للحفاظ على هويتنا وكرامتنا، ولسلامة فهمنا للكون ولأنفسنا.

المبحث الثاني

الذكاء الاصطناعي وحدود الإبداع البشري

بعد أن وضحنا في المبحث الأول حقيقة الخلق الإلهي وحدود الصنع البشري، ننتقل الآن إلى قلب الموضوع (الذكاء الاصطناعي) ما الذي يمكن أن تقدمه هذه التقنية حقاً؟ وأين تقف قدراتها؟

في هذا المبحث، سنتحدث عن الإبداع البشري الحقيقي، ذلك الإبداع المرتبط بالوعي والوجدان والروح، ونقارنه بما تقدمه الآلة من معالجة بيانات وتقليد ذكي، لكنها تظل جامدة لا تشعر ولا تختار، سنناقش فكرة استبدال الإنسان بالآلة من زاوية عقدية وأخلاقية، ونرى لماذا يرفض الإسلام اختزال قيمة الإنسان في ما ينتجه فقط، كما سنرسم ملامح علاقة مستقبلية تكاملية بين الإنسان والآلة، لا تنافسية ولا استبدادية، ونتحدث عن المسؤولية الأخلاقية التي لا تسقط عن الإنسان مهما تطورت التقنية، هذا المبحث هو محاولة لوضع الذكاء الاصطناعي في حجمه الحقيقي، بعيداً عن الخوف المبالغ فيه أو الانبهار الأعمى.

المطلب الأول

حقيقة الإبداع عند الإنسان وحدود ما تصنعه الآلة

عندما نتأمل قدرة الإنسان على الإبداع ،نجدها ظاهرة مدهشة لا تنفصل عن وعيه وإدراكه لذاته ومحيطه، فالإبداع الإنساني ليس مجرد تركيب أو معالجة، بل هو خروج عن المألوف، وابتكار لأفكار لم تكن موجودة، وحل للمشكلات بطرق غير متوقعة، إنه نتاج تفاعل العقل مع التجربة، والوجدان مع المعرفة، ولهذا فإن الأعمال الفنية والأدبية والعلمية التي تصدر عن البشر تحمل بصمة شخصية وروحاً لا تُختزل في خوارزميات (العربي ، 2004م، 112/2).

أما الذكاء الاصطناعي، فرغم ما يبديه من قدرة على تحليل كميات هائلة من البيانات واستخراج أنماط دقيقة، فإنه يظل محكوماً بالبرمجة التي وضعها الإنسان، هو لا يختار ما يتعلمه بمحض إرادته، ولا يشعر بلذة الاكتشاف، ولا يحزن لفشل تجربة، كل ما يفعله هو تنفيذ متقدم لأوامر مبرمجة، حتى عندما يبدو مبدعاً في توليد صورة أو نص، فهو في الحقيقة يعيد تشكيل ما أُدخل إليه من مواد سابقة (Russell & Norvig, 2021m, 22).

هنا نلمس فرقاً جوهرياً لا يمكن تجاوزه، فالإبداع الإنساني مرتبط بجوهر الإنسان،روحه، حريته، خبراته الوجدانية، وتفاعله مع الخالق ومع الغيب.

أما الذكاء الاصطناعي فهو امتداد للقدرات البشرية، لكنه يظل أداة جامدة لا تملك ذاتاً ولا مسؤولية، ولهذا فإن أي حديث عن "إبداع الآلة" هو في الحقيقة حديث عن إبداع الإنسان الذي صممها ووجهها، هذه النقطة أساسية في بنائنا العقدي، نحن لا ننكر إمكانيات التقنية، لكننا نصر على أن الإنسان هو الفاعل الحقيقي، والآلة مجرد وسيلة، ومن يخلط بين الاثنين، يقع في مغالطة خطيرة تجرده من إنسانيته.

المطلب الثاني

هل يمكن أن تحل الآلة محل الإنسان؟ أبعاد عقدية وأخلاقية

مع التسارع التقني، بدأ البعض يتساءل: إذا استطاعت الآلة أن تؤدي أعمالاً كانت تحتاج إلى عقول بشرية، فلماذا لا تستبدل الإنسان بها تماماً؟ هذا السؤال يحمل في طياته نظرة مختزلة للإنسان، وكأن قيمته تنحصر في ما ينتجه أو يؤديه من وظائف.

لكن العقيدة الإسلامية تقدم رؤية مغايرة، فالإنسان في الإسلام مكرم بتكريم إلهي، ومستخلف في الأرض بأمانة عظيمة، هذه المكانة لا تتعلق بقدرته الإنتاجية فقط، بل بكونه كائنًا مكلفًا بالعبادة، ومسؤولًا أمام الله عن أفعاله، وله كرامة ذاتية لا تسقط بفقدان وظيفة أو ضعف إنتاج (رمضان، 2023م، 144). بمعنى آخر، الإنسان ليس مجرد "عامل" يمكن استبداله بآلة، بل هو غاية في ذاته، وهو محور التشريع والأخلاق.

علاوة على ذلك، فإن استبدال الإنسان بالآلة في الحقول الحيوية لا يقتصر على كونه قراراً اقتصادياً، بل هو قرار وجودي وأخلاقي، فقد يحقق كفاءة إنتاجية، لكنه يهدد بالإفقاد التدريجي للمعنى الإنساني في العمل، ويجعل القيمة العليا هي الفائدة المادية لا الكرامة الإنسانية (بكار، 2019م، 66). وهذا يتعارض مع رؤية الإسلام التي تضع الإنسان في المركز الأول ، وتجعل التكنولوجيا في خدمته، لا العكس.

وحتى عندما نتحدث عن مجالات قد تبدو فيها الآلة أكثر "كفاءة" من الإنسان، كحسابات معقدة أو عمليات متكررة، فإن الإسلام لا يمنع الاستفادة من ذلك، لكنه يشترط ألا يؤدي إلى تعطيل دور الإنسان في مجالات تتطلب الوعي والمسؤولية والرعاية.

وقد أشار الشيخ عبد الله بن بيه إلى أن التكنولوجيا يجب أن تبقى وسيلة في يد الإنسان، لا أن تنقلب غاية تسلب منه خصوصيته وكرامته (بن بيه، 2022م).

إذًا الخلط بين الإنسان والآلة ،هو خلط بين من له روح وضمير ومن لا روح له، فالإنسان مكلف، والآلة لا تكليف عليها، الإنسان يُثاب على نيته وعمله، والآلة لا ثواب عليها ولا عقاب، الإنسان يُحاسب، والآلة لا تحاسب، ولذلك حين نتحدث عن استبدال الإنسان بالآلة، فإننا في الحقيقة نتحدث عن إلغاء للبعد الأخلاقي والتكليفي من الحياة، وهذه نزعة خطيرة، لأنها تسعى إلى تحويل الإنسان إلى مجرد "وسيلة إنتاج" كما تفعل بعض الأيديولوجيات المادية، متناسية أن الإسلام جعله غاية، وأي مشروع يقلل من الإنسان أو يهمشه تحت شعار التطور التقني هو مشروع مناقض لمقاصد الشريعة التي تضع الإنسان في مركز الاستخلاف (الزحيلي، 2006م، 112).

المطلب الثالث

نحو علاقة تكاملية لا تنافسية

إذا أردنا أن نحدد مستقبل العلاقة بين الإنسان والآلة في ضوء الإسلام، فإننا بحاجة إلى العودة إلى الغاية الأساسية من خلق الإنسان، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]،وهذه العبادة تتسع لتشمل عمارة الأرض بالعلم والعدل والخير، فالإنسان هو الفاعل الأصلي، والآلة أداة تساعده على تحقيق هذه المهمة.

لذلك فإن العلاقة المثلى هي علاقة تكامل،لاعلاقة استبدال أو تنافس، فالآلة تستطيع أن تؤدي أعمالاً قد تثقل على الإنسان، أو تحتاج إلى سرعة ودقة تفوق طاقته، ولكن القرارات المصيرية، والمسؤوليات الأخلاقية، والإبداع الوجداني، والتواصل الإنساني العميق، كلها تبقى حكراً على الإنسان (الريسوني، 2015م، 201). ولا ينبغي أن ننسى أن الكثير من الوظائف التي قد تؤديها الآلة اليوم هي في الأصل من صنع الإنسان، أي أن الآلة تعكس ذكاء صانعها، ولا تتفوق عليه إلا في النطاق الضيق الذي صممت من أجله.

وفي كلمة للشيخ سلمان العودة، قال إن التكنولوجيا لا تُقيم بمدى تقدمها المادي وحده، بل بمدى قدرتها على تعزيز القيم الإنسانية والإيمانية (العودة ، 2018م). وهذا معيار دقيق: أي استخدام للتقنية يخدم الإنسان ويقوي إنسانيته ويحقق مقاصد الشرع، فهو مبارك، وأي استخدام يجرد الإنسان من إنسانيته أو يجعله تابعاً للآلة، فهو مرفوض.

إذًا العلاقة التكاملية تقوم على تقسيم المهام: للإنسان ما يتطلب عقلاً واعياً وروحاً ومسؤولية، وللآلة ما يتطلب دقة وسرعة وأعمالاً روتينية، لكن هذا التقسيم لا يعني أبداً أن الإنسان يصبح "مُشغلاً" فقط، بل يظل هو المخطط والموجه والمسؤول، وبقاء الإنسان في موقع القيادة والمسؤولية هو ما يحفظ كرامته، ويحقق مقصد الاستخلاف الذي كرمه الله به، وكلما تطورت التكنولوجيا، ازدادت حاجتنا إلى إنسان حكيم يوجهها، لا إلى إنسان يستغني بها عن عقله وروحه (العلواني، 1991م، 179)،هذا هو المنظور الإسلامي الذي يوازن بين الاستفادة من التقنية والثبات على القيم.

المطلب الرابع

المسؤولية الأخلاقية.. هل الآلة مسؤولة أم الإنسان؟

واحدة من أكبر الإشكالات التي تثيرها تطبيقات الذكاء الاصطناعي هي مسألة المسؤولية، إذا ارتكبت الآلة خطأً، أو تسببت في ضرر، فمن يُحاسب؟ هل نُحاسب الآلة؟ أم المبرمج؟ أم المستخدم؟ أم الشركة المصنعة؟

في الإسلام، المسؤولية ترتبط بالتكليف، والتكليف يرتبط بالعقل والإرادة الحرة، والآلة لا تملك عقلاً مستقلاً ولا إرادة حرة، بل هي تنفذ ما أمرت به ضمن حدود برمجتها لذلك، لا يمكن مساءلة الآلة نفسها، بل المسؤولية تقع على من صممها، أو برمجها، أو استخدمها بشكل غير مسؤول

(القرضاوي، 2000م، 92). وهذا يعني أن الإنسان يظل هو المسؤول الأول والأخير عن كل ما تصنعه التقنية، وعن نتائج استخدامها.

وهذا يفرض على الإنسان أن يكون أكثر وعياً ومسؤولية عند تطوير هذه التقنيات أو توظيفها، فليس مقبولاً أن يطلق العنان للذكاء الاصطناعي دون ضوابط أخلاقية وشرعية، أو أن يلقي بالتبعة على الآلة عندما تحدث كارثة، ولهذا شدد العلامة علي القره داغي على ضرورة إخضاع كل وسيلة تقنية للضوابط الأخلاقية والشرعية، لأن الانفلات منها قد يؤدي إلى ظلم أو استغلال أو إضرار بالإنسانية (القره داغي، ورقة مؤتمر، 2021م).

هنا أوضح جوهر المسألة: الإنسان هو المخلوق المكلف، والآلة مخلوق مسخر، وإذا حدث خلل، فإن الخلل فيمن سخّر، لا في المسخَّر؛ ولهذا فإن التطور التقني لا يقلل من مسؤولية الإنسان، بل يزيدها تعقيداً وأهمية؛ فكلما زادت قدرات التقنية، زادت الحاجة إلى عقل أخلاقي يوجهها، ومن هنا تأتي أهمية التربية الإيمانية والأخلاقية التي تجعل الإنسان أهلاً لهذه الأمانة، فالذكاء الاصطناعي اختبار جديد للإنسان، هل سيكون أمينًا في استخدامه، أم سيستغله لتعزيز الطغيان أو التدمير أو التجرد من الإنسانية؟ والإجابة ستكشف عن حقيقة الإنسان أكثر مما تكشف عن حقيقة الآلة.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة في ثنايا العقيدة الإسلامية وتفاصيل الذكاء الاصطناعي، نعود لنقف على ما وصلنا إليه.

لقد تبين لنا أن الذكاء الاصطناعي، رغم ما يحدثه من ضجة تقنية وإبهار عملي، يبقى في جوهره أداة من صنع الإنسان، لا تتجاوز قدراته ما أذن الله به من تسخير للكون، فهو لا يخلق من العدم، ولا يملك روحاً، ولا يحمل مسؤولية أخلاقية، أما الإنسان فهو المخلوق المكرم، المستخلف في الأرض، المحور الذي تدور حوله القيم والأخلاق والتكاليف الشرعية، هذا التكريم ليس مجرد شعار، بل هو حقيقة راسخة في نصوص الوحي وفي فطرة العقل السليم (دراز، الدستور الأخلاقي في القرآن، ط1، 1982م، 25).

لقد حاولنا في هذا البحث أن ننزع الغطاء عن بعض المغالطات التي تروج لفكرة أن الآلة قد تحل محل الإنسان، أو أن التقنية قد تصل إلى إبداع الخالق، ووجدنا أن هذه الأفكار لا تصمد أمام النصوص الشرعية الواضحة، ولا أمام العقل الذي يميز بين الخالق والمخلوق، وبين من له روح ومن هو جماد، وبين من يُسأل عما يفعل ومن لا يُسأل، إن استبدال الإنسان بالآلة، حتى في المجالات العملية، ليس مجرد قرار اقتصادي أو تقني، بل هو قرار يحمل في طياته نظرة

مختزلة للإنسان، تنزع عنه كرامته وتجعل القيمة العليا للإنتاج لا للإنسانية (الزحيلي، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط1، 2006م، 112).

وما دمنا قد قررنا أن الإنسان يبقى هو الأصل والغاية، فإن العلاقة بينه وبين الآلة لا بد أن تكون علاقة تكامل، لا صراع ولا استبدال، فالإنسان يستفيد من قدرات الآلة في السرعة والدقة والمعالجة الكمية، والآلة تبقى مرتهنة لإرادة الإنسان وتوجيهه، وهذا التكامل هو الذي يحقق مقاصد الشريعة في حفظ العقل والمال والنفس، وفي تعمير الأرض بالعلم والعمل الصالح (القره داغي، الذكاء الاصطناعي بين الإباحة والضوابط الشرعية، ورقة مؤتمر، 2021م). ولا يمكن أن يتحقق هذا التكامل دون أن يبقى الإنسان واعياً لمسؤوليته، متسلحاً بالقيم الإسلامية التي تضبط استخدامه لكل ما يستجد من تقنيات.

التوصيات

وبناءً على ما تقدم، نرى أن المرحلة القادمة تتطلب منا وقفة جادة، ليس مع التقنية ذاتها، بل مع أنفسنا وكيف نتعامل معها، ومن هنا نوصي بما يلي:

أولاً: بناء وعي شرعي وتقني متكامل

لا يكفي أن يكون الإنسان متقناً للتقنية دون أن يكون مؤهلاً أخلاقياً ودينياً لاستخدامها، ولا يكفي أن يكون عالماً بالشرع دون أن يفهم طبيعة الأدوات التي يتعامل معها، لذلك نحن بحاجة إلى جيل يجمع بين الأصالة الشرعية والكفاءة التقنية، يدرك حدود ما يملك، ويعرف كيف يوظف ما بين يديه في طاعة الله وعمارة الأرض، هذا الوعي المتكامل هو الدرع الذي يحمي الإنسان من أن يتحول إلى تابع للآلة، أو أن تتحول الآلة إلى إله يعبده من دون الله.

ثانياً: وضع ضوابط أخلاقية وقانونية ملزمة

التطور التقني لا يمكن أن يترك دون سقف، خاصة عندما يتعلق الأمر بتطبيقات تمس حياة الإنسان وكرامته، نحتاج إلى أطر أخلاقية واضحة، وقوانين رادعة، تضبط صناعة الذكاء الاصطناعي واستخداماته، بحيث لا تتحول التقنية إلى أداة للظلم أو الاستغلال أو التدمير، وهذه الضوابط ينبغي أن تستند إلى مقاصد الشريعة التي تحفظ الضرورات الخمس، وتقدم الإنسان على الربح، والعدل على الكفاءة المجردة.

ثالثاً: تعاون وثيق بين العلماء والمختصين

لايمكن للعلماء الشرعيين أن يصدروا أحكاماً دقيقة عن تقنيات لا يفهمونها، ولا يمكن للمختصين أن يدركوا الأبعاد الأخلاقية والعقدية لمبتكراتهم دون الاستنارة برؤية شرعية، لذلك

نحن بحاجة إلى جسور دائمة بين الحوزات العلمية ومراكز الأبحاث التقنية، يجلس فيها الفقيه مع المهندس، والعالم مع المبرمج، ليتشاركوا في وضع تصور متوازن للتقنية التي تخدم الإنسان ولا تهدده، وتدفع به نحو الخير ولا تسحبه إلى الانبهار المجرد.

يبقى الإنسان في قلب كل معادلة، وهو الذي كرمه الله بالعقل والروح والاستخلاف، فإذا أحسن استخدام ما بين يديه، نفع نفسه وأمته، وإذا غفل عن مسؤوليته، تحولت التقنية من نعمة إلى نقمة، والمطلوب منا اليوم، في عصر الذكاء الاصطناعي، ألا ننسى أنفسنا في زحام التطبيقات، وأن نتمسك بثوابتنا التي تحفظ لنا إنسانيتنا، وأن نستخدم كل جديد في طريق الخير، لا في طريق الهدم أو الانبهار.

وبهذا نكون قد قدمنا رؤية عقدية متزنة، تفتح الباب لمزيد من البحث والتأمل، وتذكرنا دائماً أن خير الأمور ما كان في وسطه، وأن أعظم ما نملك هو عقولنا المؤمنة وقلوبنا الواعية.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن رشد، محمد بن أحمد. فصل المقال. دار المعرفة. بيروت. ط1، 1993م.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر. بيروت. ط3، 1414هـ.
3. بكار، عبد الكريم. القيم والإنسان المعاصر. دار القلم. دمشق. ط1، 2019م.
4. الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1، 1408هـ.
5. الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. ط4، 1407هـ.
6. الجويني، عبد الملك بن عبد الله. الإرشاد. تحقيق: محمد يوسف موسى. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط1، 1411هـ.
7. دراز، محمد عبد الله. الدستور الأخلاقي في القرآن. دار القلم. الكويت. ط1، 1982م.
8. الرازي ، فخر الدين ،مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط1420،1هـ
9. الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط1، 1420هـ.
10. رمضان، محمد. "الذكاء الاصطناعي من منظور إسلامي". مجلة جامعة الأزهر للدراسات الإنسانية. العدد 34. القاهرة. 2023م.
11. الريسوني، أحمد. الاجتهاد المقاصدي والتحديات المعاصرة. دار الكلمة. بيروت. ط1، 2015م.
12. الزحيلي، وهبة. مقاصد الشريعة الإسلامية. دار الفكر. دمشق. ط1، 2006م.
13. العربي، إبراهيم. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة. ط4، 2004م.

14. العلواني، طه جابر. أزمة العقل المسلم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. واشنطن. ط1، 1991م.
15. عيسى، جمال. "الذكاء الاصطناعي وحدود الإبداع الإنساني". مجلة الفكر المعاصر. العدد 12. بيروت. 2023م.
16. الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين. دار المعرفة. بيروت. ط1، 1414هـ.
17. الغزالي، أبو حامد. مقاصد الفلاسفة. دار المعرفة. بيروت. ط1، 1998م.
18. الفارابي، أبو نصر. آراء أهل المدينة الفاضلة. تحقيق: نادر البيطار. دار الفكر. بيروت. ط2، 1995م.
19. القرضاوي، يوسف. فقه المسؤولية في الإسلام. مكتبة وهبة. القاهرة. ط1، 2000م.
20. القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1، 1420هـ.
21. Chalmers, David. "Could a Large Language Model Be Conscious?". arXiv. 2023m.
22. Farahany, Nita A. "Artificial Intelligence and Bioethics". Journal of Law and the Biosciences. Oxford University Press. Vol. 9, Issue 1. 2022m.
23. Gunkel, David J. The Machine Question: Critical Perspectives on AI, Robots, and Ethics. MIT Press. 1st ed. 2012m.
24. Moravec, Hans. Mind Children: The Future of Robot and Human Intelligence. Harvard University Press. 1st ed. 1990m.
25. Russell, Stuart & Norvig, Peter. Artificial Intelligence: A Modern Approach. Pearson. 4th ed. 2021m.
26. MIT Technology Review. "The future of AI and human-like robots". 2024m.

Wired. "Can AI be truly creative?". 2023m